شعر الملحون في الأدب الشعبي المغربي

الطالب الباحث مَحمد الزعيمي
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

I. الأدب الشعبي:

لازال الأدب الشعبي يحتفظ بنكهته المتميزة رغم زوال الأسباب، التي اقتضت ظهوره في البداية، ولازمته طيلة رحلته عبر التاريخ والمكان. ولا يزال قسم كبير منه محط اهتمام القراء وإقبالهم عليه واستمتاعهم به. كما يشكل إلى جانب ذلك موضع التفات الأدباء والفنانين والنقاد، إحياء للأصل واقتباسا منه أو استلهاما لبناء جديد يقوم عليه في عصر كادت فيه أبنيته تهوي وترتدم. ولا غرو في أن جانبا من هذه الظاهرة (**الأدب الشعبي**) تشارك فيه الآداب والفنون القديمة كافة، حيث نجد له من دواعي التأويل أو التبرير ما يقود إلى انعطاف الراشد ورجوعه إلى طفولته كما يقول علماء الأحياء في نظرية الاسترجاع مفادها: **"أن الإنسان وهو تاج الخليقة يحكي في نشأته وتدرج حياته نشأة الحياة كلها على اختلاف صورها وتدرجها ونموها، أو ما يرد إلى تماثل المنازع الإنسانية في جوهرها، ولو تفاوتت الحقب التاريخية".**[1]

ورغم ذلك، فإن للأدب الشعبي خصيصة هامة وشائعة وغالبة فيه تستميل النفوس وتستفزها **"تقوم على أن جانب الخيال والتطلع أبرز فيه وأظهر"**[2]، وعليه يكون الأديب الشعبي . في ثورته على قيود الكتابة . أبعد غورا، وأعمق نظرة في حياة الناس والمجتمع. تلكم الحياة التي يطالها من الأديب "الرسمي" أو"الفصيح" في كثير من الأحيان كثير من التقييد أو التحريف، على عكس الأديب الشعبي الذي إذا انساقت له سليقته، وفاض حسه الفني ونفذت نظرته الثاقبة في الأشياء، فإنه يأتي بأكثر مما يروم قوله، شأنه شأن الأديب المبدع الذي لازم وعيه الفردي وعي الجماعة، فأصبحت **"الأنا الفردية مندمجة، إلى حد بعيد، "بالأنا" العامة أو مقابلة لها، واللاوعي بشقيه الفردي أو الجماعي يتناوبان نظيريهما في الوعي شفافية أحيانا وكتامة أحيانا أخرى".**[3]

ويعتبر هذا الأدب كغيره من الآداب في كل زمان ومكان نشاطا فنيا يصدر عن أديب موهوب ذي إرادة، يدين بوجوده لظروف موضوعية مستقلة عن الأفكار والتصورات، ومتفاعل معها. كما أن جمهور هذا الأدب مكون من كائنات اجتماعية تنصهر في المجتمع، وتكون شبكة من العلاقات فيما بينها، ثم تساهم في إنتاج أسباب العيش فيها، وتتعامل فيما بينها في جدلية تقسيم العمل والتمايز والتكامل.

ومن سمات هذا الأدب الذي أخذ من الشعب اسمه فانتسب إليه أن المدى الزمني يمده بأسباب البقاء في بلده والارتحال والهجرة إلى بلدان أخرى، غير أنه شأن كل ظاهرة ثقافية في شكله الذي ثبت عليه، وإلى حد كبير في مضمونه ومحتواه إلى واقع وحقبة زمنية معينة، الشيء الذي جعله قبلة الباحثين والدارسين والمهتمين به وطلبة العلم، سعيا منهم إلى استجلاء مكامنه وكنوزه وأسراره، وكل هذا على أساس من التاريخ، لأن الآثار الأدبية والثقافية لا يمكن الحكم عليها والكشف عن ملامح الجمال والقبح فيها إلا بفهم الظروف التاريخية التي مهدت لأصحابها، ودفعتهم إلى أن يصدروا ما أصدروا على صورتها تلك. ومن ثم كان الأدب الشعبي بكل أنواعه ومشاربه وتلويناته مرآة للماضي وصورة للتاريخ، ونفسا من أنفاس الأجداد ينقل إلى الأحفاد أحاديثهم ووصاياهم وما كانوا عليه، وما يتطلعون إليه. فبواسطة هذا الأدب الشعبي أذاع العامة أصداء حياتهم وأحداثها ووقائعها وأيامها، وما كان فيها من خير وشر، وأوضحوا فيه ما أرادوا، وخلّدوا النماذج والشخصيات والواقع والصواب والأحلام والتطلعات التي تمثل مجتمعهم. وليس هذا فقط، بل في مكامنه مشكلة أفكار دارجة تثير وتحرك الجماهير، ومشكلة أفكار علمية تخص نخبة المثقفين والدارسين، **"وكما أن هذه تحدد لدى القادة والعلماء حلولا نظرية لبعض المشكلات، فإن تلك تحدد السلوك العملي للجماعات إزاء المشاكل التي تصادفهم في الحياة".**[4]

والأدب الشعبي يدل على أن للجماعات أدبا كما للأفراد، ولو أن أفرادا معينين هم من أبدعوا آثاره الفنية الشعبية، وأسبغوا عليها كمال حللها الجمالية، ولهذا فإنه لا يقل عن أي أدب آخر في كونه فاعلية متميزة، وديناميةرافعة فريدة، وعليه فإنه إذا كان صالحا في ذاته للنقد والتذوق، فهو إلى جانب ذلك ولنفس السبب وثيقة تاريخية من أهم وأعظم الوثائق للباحثين في علم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والإنسان.

وهذا الأدب ـ على ما يحتويه من شطحات نفسية، ونزعات ذاتية، وما بث فيه من مغامرات وحكايات خرافية – نجده لا غنى عنه في علم حضارات الشعوب، حيث يكشف للدارسين عن تطور حياة الإنسان الروحية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية، وبانتقاله عبر وسائل متعددة هي بنت زمانها من شعب إلى شعب، من أمة إلى أمة يمكننا استكشاف العلاقات بين الشعوب والأمم. ولولاه لظلت تلكم العلاقات مغيبة أو عديمة.

ولهذا لم يعد من المقبول اليوم " **وضع الأدب الشعبي قبالة الأدب الرسمي أو الفصيح، أي رفع الثاني على حساب الأول أو الغض من قيمته، إذ أن كليهما ينبع من حاجات إنسانية واحدة، ولكن تاريخ الأدب ما زال إلى اليوم يبالغ في حصر تخصصه في جانب واحد هو الأدب الرسمي. فإذا حاول تاريخ الأدب أن يتجاوز حدود الأدب الرسمي ليشمل أسس الأدب وطبيعته، بصفة عامة، فإنه يتحرك من خلال تصورات مضطربة وتعسفية للغاية**"[5]

إلا أن هذا الرأي لا يصدق دائما، ولا ينطبق على كل الأصقاع والبلدان، فنحن في المغرب مثلا ـ ولله الحمد ـ لا نشكو من هذه المعضلة التمييزية بين الأدبين: **الشعبي والرسمي**، فأدباؤنا ونقادنا ومؤرخو الأدب عندنا يهتمون بالنوعين معا. كتابة ونقدا ودراسة. ولا فرق عندهم بين الأدبين إلا كمن يفرق بين الشقيقين التوأمين. ولا أدل على ذلك أكثر من حرص المغرب والمغاربة على المطالبة بإدراج شعرنا الشعبي المسمى بالملحون ضمن التراث العالمي اللامادي. وهو الشيء الذي تحقق مؤخرا بفضل الجهود المكرسة من قديم وباستماتة رسميا وشعبيا كي نحظى بهذا الشرف والتشريف لنا ولأجدادنا الذين تركوا لنا هذه الذخيرة التي أصبحت ذات طابع عالمي كوني.

وحسب رأيي المتواضع، فإن الأدب واحد رغم اختلاف وصفيه الشعبي والفصيح. وإنما الشعبية والفصاحة قناتان لبثّ الأفكار والمشاعر والخواطر فقط، أقول قولي هذا لمن يفرق بين الأدبين بغرض الإقصاء أو الازدراء، أو يتحرّج في ذكر ما هو شعبي أو الاعتماد عليه، وهو نفس الرأي الذي يتبناه إحسان شركيس في قوله: "**إن الأدب جميعه يبدو لنا كيانا يتحرك على الدوام: يخرج منه الأدب الرسمي ثم يعود إليه ليصب فيه، لكي يمتزج به من جديد حتى يخرج من أدب جديد مرة أخرى، ونحن حين نرجع إلى الشعر العربي في عصوره الأولى، سنجد عشرات النماذج بل مئاتها أصبحت فيما بعد، جزءا من الأدب الكلاسيكي حتى كدنا ننسى أصلها الشعبي**".[6]

فاستعمالات الشعراء الجدد مثلا لبكاء الحمام الهديل فوق أغصان الشجر، ومخاطبتهم لسرب القطا في السماء للتدليل والاهتداء، إنما استمدوها من الشعر العربي الجاهلي. فهؤلاء المحدثون لم يتحرجوا في استخدامها باعتبارها تراثا عربيا كلاسيكيا. فابن شهيد القرطبي في رسالته: "التوابع والزوابع" وثب وثبة على متن الخيال الشعبي إلى عالم الجن والشياطين، إذ التقى بشياطين الشعراء والكتاب القدماء، فوصفهم وطارحهم الشعر والنثر، وظفر من ثم بإجازاتهم.

نستخلص من هذا كله أن هناك ارتباطا وثيقا بين الإنتاج المثقف والإنتاج الشعبي في الشعر وفي غير الشعر، مهما اختلف الزمان والمكان، وعلينا أن نتجاوز النظرة البئيسة إلى التراث الأدبي الشعبي بأسره بما في ذلك الحكاية الشعبية والخرافة والأسطورة والموسيقى الشعبية والعيطة والزجل وشعر الملحون... إلخ، بوصفه عند البعض كما يقول إحسان شركيس: "**نفايات الحضارة الراقية ومادة حضارية متخلفة**"[7].

وهي نظرة خاطئة ومغرقة في الانحراف لدرجة اليأس والتبخيس. وعلى العكس في ذلك تماما، فإن أعمال الأدباء الكبار كانت وليدة الحصيلة الفنية الهائلة للأدب البدائي الشعبي، جريا على سنة الحياة: "**كل جديد يخرج من جوف القديم**".

والحق، والحق أقول: لابد لقارئ الأدب الشعبي أن يسعد وينتشي بفنيته، إذا قرأه بعمق وتدبره، فمن خلاله يطل على عالم يشرق بالروعة في كل مكوناته وبنياته، عالم عميق الإدراك، بعيد المدى، تشيع فيه البهجة والسعادة، وهو في نفس الآن عالم النظام الأسمى والأرقى بما يحمله من مضامين، وما يؤديه من رسائل، وما يهدف إليه من تطلعات تسعد البشرية.

فقد عاش مع البشرية في حقب متمادية من خلال بنيان تتراكب طبقاته فوق بعضها البعض، وتزداد أعماقه مع الزمن، وكلما زاد الزمن زاد الشوق والفضول إليه لاكتشاف جدلية "**الشجرة والجذور**" فيه.

II. الملحون مظهر من مظاهر الأدب الشعبي:

والملحون جزء لا يتجزأ عن الأدب الشعبي، وهو فرد مطاع، له هيبته في الأسرة الأدبية الشعبية، يتبادل العطاء مع باقي الفنون الشعبية، يؤثر فيها وتؤثر فيه. ويشترك معها في كثير من العناصر والمكونات على المستوى الدالي والدلالي والتداولي، والانتماء الأصلي الذي يعود إلى الذاكرة الجماعية مع تميز ملحوظ، وأفضلية خاصة لشعر الملحون، فيبقى الشعر "**أفقه أوسع من أن يحدّ بهذه الحدود، وكل ما هناك أن المشابهة هي في أسلوب الإيحاء... لا تتجاوزه في شيء**".[8]

هذا، لأن إشعاع المعاني الشعرية لا ينقطع في بعض القصائد، وفي البعض الآخر تكون القصائد أشبه باللوحة الزيتية، بوصفها للجمال وتصويره، وفي قصائد أخرى ترى القارئ مغلوبا على أمره، "**فيحرك الرأس أو يهز المنكبين طربا كأن أمامه راقصة تحاول أن تبعث نفسها فيه، ونوع خامس يميل القارئ إلى إطباق أجفانه مغمورا بإحساسها، كأنما هناك آلة تعزف له**".[9]

إذن، هذا الذي أطلقنا عليه شعرا في حظيرة الأدب الشعبي وسميناه ملحونا فما هو يا ترى؟

إنه شكل من أشكال التعبير الإنشادي الغنائي الذي يرسم معالم الثقافة المحلية المغربية بجميع أطيافها وألوانها، يعالج فيه صاحبه (الناظم) عدة أغراض وقضايا ذات صلة وثيقة بالنفس الإنسانية والمجتمع.

فماذا تعني كلمة: "**الملحون**"؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من الرجوع إلى المعاجم العربية. فكلمة "**ملحون**" على وزن مفعول. رغم أنها عربية فصحى. من (لحن يلحن فهو لاحن أو ملحون) لم ترد في المعاجم القديمة كلسان العرب ومعجم مقاييس اللغة، والصحاح في اللغة، والقاموس المحيط، رغم أن وزن الكلمة الصرفي عربي صميم. يقول محمد أبو عابد: "**وعندما انتقلنا للبحث عنها في بعض المعاجم الحديثة وجدنا المعجم الوسيط لا يذكرها، بينما ورد ذكرها في ص 1079 من (المعجم العربي الأساسي)، بحيث سطر واضعوه تعريفا بها هو التالي: (ملحون: 1 كلام به لحن، 2ال – شعر باللغة الدارجة، ويقال له: شعر شعبي "قصيد رائع من الشعر الملحون")، وأوردها د. عبد الغني أبو العزم في الصفحة 3172 من (معجم الغني الزاهر)، فسجل عنها ما يلي: (ملحون – (ل ح ن) مفع . من لحن). 1. "نص شعري ملحون: نص وضعت له ألحان. 2." أدب الملحون": فن شعري شعبي بالمغرب العربي مكتوب باللهجة العامية، له أوزانه الخاصة)**[10] به.

بهذه الجولة في رحاب المعاجم العربية قديمها وحديثها تعرفنا إلى لفظة "**الملحون**" على أنها لم ترد في المعاجم القديمة إطلاقا، رغم أهمية هذه المعاجم وعظمتها في الإحاطة بجوانب اللغة العربية. وفي المعاجم التي وردت فيها كلمة "**الملحون**" تبينا أن لها دلالتين لا ثالثة لهما: "**تفيد أولاهما ما تفيد لفظة (الملحَّن) بتشديد الحاء وفتحها، أي أنها تدل على ما وقع عليه فعل التلحين والموسقة. وتفيد الثانية هذا النوع من الشعر المغربي ذي الأوزان الخاصة**".[11]

وعندما نعود إلى مؤلف: "**معلمة الملحون**" نجد العلامة محمد الفاسي في الجزء الأول من معلمته، نجده يعنون الباب الأول بسؤال عريض: (**ما الملحون؟، ولماذا سمي بهذا الاسم؟**) وكان يستعمل اللفظة مجردة ومستقلة عن موصوفها (**الملحون**) تارة، وتارة يجمع بينهما: (**الشعر الملحون**).

وفي معرض جوابه عن سؤاله العريض المعنون للباب الأول قال: "**أول ما يتبادر للذهن أنه شعر بلغة لا إعراب فيها، فكأنه كلام فيه لحن. وهذا الاشتقاق باطل من وجوه، لأننا لا نقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون، وإنما باللهجات العامية، ولم يرد هذا التعبير عن أحد من الكتاب القدماء لا بالمشرق ولا بالمغرب، ولا يعقل أن يسمي أحد شعره بكلمة تنمّ عن الجهل.**

والذي أراه أنهم اشتقوا هذا اللفظ من التّلحين بمعنى أن الأصل في هذا الشعر الملحون أن ينظم ليُتغنّى به قبل كل شيء".[12]

ولعل هذا المعنى يجد من يؤكده قبل محمد الفاسي وغيره، وهي إشارة ابن خلدون في "**المقدمة**" وبالضبط في الفصل الخمسين المعنون ب " في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد"، حيث قال: "**وربما يلحنون فيه ألحانا بسيطة لا على الصناعة الموسيقية**"[13].

وعلى العكس من ذلك، فقد ذهب الدكتور عباس الجراري في أطروحته العلمية (الزجل في المغرب: القصيدة) أواخر الستينات إلى أن كلمة: (الملحون مشتقة من اللحن أي الخطأ اي ان شعر الملحون لا يخضع للقواعد المعيارية.

وخلاصة القول في معنى "الملحون" ودلالته ما أوجزه محمد بوعابد في كتابه: حفريات في الشعر الملحون دراسة في الشعر المغربي العربي الزاجل: "**ذكر الاستاذ العلامة محمد الفاسي أنها من اللحن الذي هو الغناء وترجيع الصوت، لأن الغاية في نظره من إبداع نصوص هذا الشعر هي التغني بها وانشادها. وسجل الدكتور عباس الجراري في اطروحته إن هذه التسمية قد تم اطلاقها على هذا الشعر بسبب من عدم خضوعه لقواعد اللغة العربية في مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. ورأى الشاعر الشيخ أحمد سهوم ان ما أريد من وراء إطلاق هذه التسمية على النمط من القول الشعري المغربي، إنما هو إفادة الدلالة على اتسامه بالبلاغة، بما أنه قادر على الإبلاغ والإقناع من خلال الامتاع بلغته وموسيقاه وصوره الشعرية**"[14].

والشعر الملحون كغيره من الشعر الفصيح لم يتوان عن تتبع صغائر حياة الإنسان وكبائرها، ووصف دقائقها وتفاصيلها اليومية المعيشة، فكان كالقلب النابض في جسم الإنسان ومجتمعه. رافق الإنسان في رحلتي الخير والشر كما قال امبارك شبرو: "**يهتم بالغزل أو ما يعرف "بالعشاقي" أو الخمرة وأجوائها " الدوالي" والعراصي بأطيارها وأزهارها**"[15]، وهي مضامين "**تعبرعن واقع أناس تجرفهم الماديات وتهزمهم عزة مكانتهم الاجتماعية داخل هرم يحتلون قمته**"[16] فتغنى مع العاشق لوعة:

فهذا السي التهامي المدغري المتدفق إبداعاً وتخيلا للمعاني والتصورات، وكان الفارس بلا منازع في ميدان الغزل والحب والهوى، يقول مثلا:

"أنـا نبـات سـايحْ — وذْموعي ساكبة تْسيحْ

واللّي لامني ف الرّايحْ — في خاطر وشْريـحْ

واللّي يكـون طـايحْ — ما هو مثل اللّي صحيحْ"[17]

ويقول:

"هزني وحشكْ يا مصباحي — ورماني بين الرياحْ

خلاّني غصني جايـحْ — ما مثلي مقْروحْ"[18]

إلى أن يقول وهو يتحرق بين اللوعة والعتاب،

"مالْ جفني يبكي بالدمعْ ليلْ ونهـارْ مالْ جْفنْ عويشة ساحي من الدموعْ

مال قلبي تضرب منو مْشاعل النّـارْ مال قلب عويشة ماقست لو وْلـوعْ

مال عقلي يا ربي من جوارحو طارْ مال عقلْ عويشة ما هزّتو قلـوعْ

مال جسمي فاني حتى صفار وخضارْ مال جسم عويشة ما ضرّتو وجوعْ"[19]

ثم يقول:

"أنا اللي بلغرام قلبي مجـروحْ والهوى منو فاني ما جبرت راحة

آش عمالي نبات مجروح ونّوحْ طول داجي ودموعْ نواجلي سياحة

من فقدْ اللّي هويت نعت الدّبدوحْ يا ترى تعطف لي وتجودْ بالسّماحة"[20]

وإذا كان سي التهامي المدغري قد تألق في الغزل (العشاقي) فإن لكل مجال آخر فارسه وعملاقه وهرمه.

وهذا عبد العزيز المغراوي شاعر متأصل من إقليم تافيلالت منتمي الى القرن 16 ميلادي "كان ملهما ومبدعا بقدر ما كان تقيا فقيها"[21]، جدد وابتكر في الملحون وهو الذي أنشأ ما يسمى بالعروبي وقد اشتهر بالقصائد الدينية وامتاز فيها امتيازا ملحوظا، يقول في إحدى مناجاته:

"صلى الله على هاذ النبـي الارفع واصحابو الجمع من بعد كل رسولْ

وبعد الصلاة ببـلاغـة المطلـعْ نرجع للحديث الباهـج المنقـولْ

كيف جا في كتوب يا كل من يسمع حضروا بالكم لان العقـول اتجول

احديث اعجيب شاهر فكل اوطـان انظمتو اقصيد بصنعـة انشـادي

مناجات اكليـم الله ابـن عمـران صلى الله اعليه وعلى النبي الهادي"[22].

وبجانبهما نجد الشاعر الكبير الجيلالي مثيرد، الذي قيل عنه إنه أول من تناول موضوع الشعر التمثيلي في شكل الحراز، شوهد له أنه كان زعيم شعراء عصره بلا منازع، أثر فيهم إلى حد بعيد حيث شبهوا قصائده بالنار "الشعالة". نظم في جل أغراض الملحون، تأمل في الشمعة وهي تذوب في رائعته التي مطلعها:

"لله يا الشمعة قري وعلاش ذا النواح والناس فـ لفراح

وانت جواهر دمـوع بكـاك الهطيلـه"[23]

تم نجد أحمد الغرابلي وهو من نخبة الشعراء الزجليين الذي تسبق قصائده الريح، انتشارا ورواجا بين منشدي الملحون في شتى أنحاء المغرب، وعلى أمواج الإذاعة. وهو شاعر مجيد في الهجاء يتسم فيه بالعناد وعدم التساهل أو المهادنة: لنستمع إليه ردا على التركماني الذي توجه إليه بقوله:

"يالداعي شهد والشهادة بالله وبالرسول تكفي وكفات وكافيه وخير

في الدنيا وف الآخره اكثر

والمومن نيتو افضل من اعمالو"[24]

لكن الغرابلي قصفه قصفا وهو يرد عليه:

"امر فرضو ربي شد فيه وتبغي تسهالــو

الشهاده لها كم شروط لا ريب معاهــا

كيف ترخف من شد الحق بعد رشدك مرسالو

يا الناكر شمس العليا اللي من النور انشاها

يا اللي ما يفرق بين لحرام حتى وحلالــو

عيشتــك ف الدنيا فجور وفشر وسفاهــه

جيب اوصاف قواعد ليمان يا مضيع راس مالو

وجيب اوصاف الإسلام اذا كنت تقراهــا

ف الصلاه والصوم تهلا وقوم دينك وكمالــو

ورد نفسك على أفعال الفحش قبل تغرق ف خطاها"[25]

إلا أن غريمه لم يرتدع، بل رد عليه، وكأني بهما جرير والأخطل، أو جرير والفرزدق، وكانت بينهما مسافة غير يسيرة آنذاك، من فاس الغرابلي الي مراكش التركماني على خلاف أيامنا.

ويقول في رده:

ونصحك ما ريت ما يكفر ذنبك إلا تجي لبهجة لمدن مبهدل يا حقيـرْ

ونطوفك على الشهاد ف مراكـش بالكـف ولولاول والهـديـرْ

سبعة أيام وكل يوم تطويفة فالحومة واذا رْزمتِ ترجع لغلايلي يْسيرْ[26]

وهذا الشاعر محمد الفلوس المناضل الاجتماعي والوطني في حضيرة فاس في فترة ما بين الحربين، والتي كانت الحماية الأجنبية تحاول تكميم حريته تعبيرا وعملا، التجأ إلى الرمز في وطنياته التي كان يخفيها خوفا من مضايقات عيون المستعمر، وقيل انه أتلفها حرقا، ولم يبق له إلا القصائد الدينية وبعض المنوعات التي نذكر منها القصيدة الخالدة "الدمليج" والتي خلدت له ذكره في الخافقين.

"وتبدأ المقتطفات التالية لتلك القصيدة من حين نزعت "زهيرو" الدمليج من معصمها وقالت له ها هو لك يا عاشق الحسن والجمال، فعليك بصيانته وضعه في مكان أمين خفي مستور:

هاك الدمليج يا عاشق المحاسن صونو واحضيه محجوب السريه

حتى نهدف ونزور مرسمك ونصيبو محصـــــان

ودعت هلال الزين تاج لبها ورجعت من الفراق روحي مدهيه

وعملت بجيبي بالاشواق دمليج ضيا لعيـــان

تم الدمليج مشى وطاح لي وبقى عقلي كيجول صبحا وعشيه

وانا لا حاله كيف حالتي فالضي وديجان

دمليج زهيرو غاب ما بان وبقيت من فراقو مهموم حزين

ما شاف مثيلو فيد سلطان عند لعراب ولا ف الهند والصين

دمليج لا يوجد ف مكان ف الروسيا ولا في خزين ستالين"[27]

إلى آخر القصيدة بعد ما طاف كل أحياء وأزقة مدينة فاس ودروبها زقاقا زقاقا ودربا دربا. وجد الدمليج عند بنتين قرينتين من أهل الحب، وضربتا معه موعدا يوم الجمعة بجنان السبيل لتسلماه الدمليج في حوار رائع ممتع، يظهر فيه ضعفه كعاشق لصاحبته ووفيا لها في حبه. وغير هؤلاء من الشعراء الذين لا يسعنا هذا الملخص لذكر اسمائهم وتتبعهم أمثال عبد الله بن حساين وعبد الجليل المصمودي، ادريس بلحنش التهامي الهروشي محمد بو عمرو، الفقيه العميري، أحمد الكندوز، محمد بن علي الدمناتي المفسيوي، أحمد الطرابلسي، حسن اليعقوبي، إدريس المباركي وغيرهم كثير سنوليهم اهتمامنا في ثنايا الأطروحة إن شاء الله تعالى.

وإلى جانب هذه الضروب الشعرية والفنون القولية، التي سار فيها الملحون على غرار الشعر الفصيح، من مدح وهجاء ورثاء ووصف وغزل وتوسل إلى غير ذلك، نجد شعر الملحون يتسلق في أسباب الحضارة ووصف العمران.

يقول مبارك أشبرو: "**إنه في وسع المتتبع لمسيرة هذا الفن الشعبي منذ مرحلته الجنينية بأرض تافيلالت حتى استوى شامخا وإلى اليوم أن يلاحظ أنه خاص في جميع الأغراض التي تمس واقع الإنسان المغربي في أفراحه وأتراحه إلى درجة أضحى معها سجلا حافلا لمجريات الأحداث وللحياة اليومية في أدق تفاصيلها وجزئياتها، كاشفا الغطاء عن نفوس المغاربة في انفعالاتهم وعواطفهم**"[28].

إن الذي أنيطت به مهمة التعريف بمظاهر الحضارة المغربية عادة هو الإعلام، بوسائله الخاصة به من وسائل سمعية بصرية وملصقات و ما إلى ذلك، إلا أن شعر الملحون هو الآخر يمكن أن يؤدي هذه المهمة ويقوم بهذه الوظيفة قديما وحديثا، حيث بإمكانه – وهو القادر على ذلك – أن يعرف بها، وينقل وصفها الدقيق بالكلمة الشاعرة والصورة البلاغية المناسبة، ليس هذا فقط، بل أكثر من ذلك يستطيع أن ينقل للمتلقي انطباعاته وارتساماته حولها. إلا أن هذا لم يكن في قصائد مستقلة، بل كان موزعا في ثنايا الأغراض الشعرية، لأن الشاعر الملحوني كان في اعتقاده أن الأولى بالوصف هو الطبيعة التي خلقها الله تعالى، أما صنائع الإنسان كمخلوق فإنها لا ترقي إلى صنع الخالق. ومن المظاهر الحضارية التي سخر لها قلمه الشاعري وبنات شفتيه الزوايا، المصرية، المسجد وساحة القصر. فالشاعر عندما يقع على المرسم يصف صاحبه جريا على عادة شعراء الفصحى:

أمر على الديار ديار ليلى اقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما شغف قلبي حب الديار ولكن حب من سكن الديارا

وفي هذا الصدد يقول الجيلالي مثيرد:

"ومرت للوصيفة تسبق لباب لقصر

وتبشرلي رايـة النصـــر

زادت اقدامـي را فدة تريــــا

حتى دزنا الباب الأول والثاني

هكذا والثالث والرابع في لحضــا

والخامس والسادس زدت للسابع قالت زد يا العاشق

ادخلنا لمواسط القصر

مرفوع بحكمة وفرض يا جورا والورقة والكايزا

وصوار وصحون واتقاوس وخصات على المحنشات

والقرط المزيهري والزليج على الصناف

نحكي حرجت النوار

زدت إلى القبة سمعتها تقول سهلا وأهلا

وميات مرحبا بحبيبي"[29]

ونجد الشاعر الفقيه مولاي عبد الرحمن بن أحمد المدغري يقول في قصيدة رثائية (لعزو) لشيخه سيدي محمد العربي المدغري مؤسس الزاوية الدرقاوية بتافيلالت يصف فيها قصره رحمة الله عليه:

"شوف القصر المحصون كيف سماه ارحمت الله الوارد والغادي

بعـدمـا كـانـت موحشـا مـن جمـلـة اهـاد

واحيات بالمياه ولقحنا لغراس وهب نسيمها من الورد النـادي

إلى أن يقول:

والزاوية بتقاوس وامصاري ومنزه والقبب تهـاد واتهــادي

مــرقـم محـصـون والمسـيـد مشيـد تشـيـادي

ومساجد للصلاة منظّفين وما لوضو في كل حين عند المنادي"[30]

ختاما، ليس غرضنا هنا التفصيل، بل إجمال أن للملحون رسالة سامية في كل منطوقه، عاش مع المغاربة يستمع إلى نبضهم اليومي منذ نشأته الأولى، ورافقهم في دروب حياتهم، وهو يشكل تراثا فريدا تفرد به المغرب والمغاربة الذين أثْروا منظمة اليونسكو بالتراث المادي (المدن والقلاع والحصون والأسوار)، وبالتراث اللامادي الذي هو الملحون.

الهوامش:

[1] – إحسان سركيس، مجلة دراسات عربية، ع:8، السنة الرابعة عشرة، يونيو 78. ص73.

[2] – نفس المرجع، نفس الصفحة.

[3] – نفس المرجع، نفس الصفحة.

[4]– المرجع السابق، ص 74.

[5]- المرجع السابق، ص 75.

[6]- المرجع السابق، ص 75.

[7]- نفس المرجع، نفس الصفحة.

[8]- إبراهيم العريض، الشعر والفنون الجميلة، دار المعارف بمصر، ص 124.

[9]- نفس المرجع، ص 125.

[10]- محمد بو عابد، حفريات في الشعر الملحون، ج: 1، الطبعة الأولى 2023، المطبعة والوراقة الوطنية، ص 21.

[11]- نفس المرجع، نفس الصفحة.

[12]- محمد الفاسي، معلمة الملحون، القسم الأول من الجزء الأول، السفر الرابع عشر، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ص 29.

[13]- ابن خلدون، المقدمة، ط. بيروت، 1961 ص 582.

[14]- محمد بو عابد، حفريات في الشعر الملحون، ج 1، ط1، 2023، ص 61.

[15]- امبارك أشبرو، مظاهر الحضارة المغربية من خلال شعر الملحون، ط1, ص5.

[16]- المرجع السابق، نفس الصفحة.

[17]- عبد الله شقرون، نظرات في شعر الملحون، ط3، 2020، منشورات الملتقى، ص 58.

[18]- المرجع السابق، ص59.

[19]- المرجع السابق، نفس الصفحة.

[20]- المرجع السابق، نفس الصفحة.

[21]- المرجع السابق، ص 54.

[22]- محمد بو عابد (أبو ريم)، حفريات في الشعر الملحون، دراسات في الشعر المغربي العربي الزاجل، ج 1، ط 1، 2023، المطبعة والوراقة الوطنية، ص 56.

[23]- عبد الله شقرون، نظرات في شعر الملحون، ط3، 2020، دار القرويين، الدار البيضاء، ص56.

[24]- المرجع السابق، ص61.

[25]- المرجع السابق، ص ص 61-62.

[26]- المرجع السابق، ص 63.

[27]- المرجع السابق، ص ص 65-66.

[28]- امبارك شبرو، مظاهر الحضارة المغربية، ط3،2005، ص5.

[29]- المرجع السابق، ص 16.

[30]- نفس المرجع، ص 18.